كل «يوليو» وعمان في «سلام»

محمد بن سيف الرحبي

في يوليو عرفت عمان لحظة ولادة فجر جديد على يد مؤسس الدولة الحديثة جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم، حفظه الله وأمده بالعافية، ومع تجدد ذكرى هذا اليوم المجيد، وبعد ٤٧ عاما من عمر ذلك الفجر يحق لنا أن نسعد بما أنجز بعد عقود من العمل والجهد والعرق المبذول لتصل الخدمات الأساسية إلى كل مواطن، مهما بلغت صعوبة التضاريس، واتساع الجغرافيا، ومحدودية الموارد.

كانت مرحلة بناء في زمن صعب..

المرحلة لم تتوقف لكن الظروف تغيّرت، الإنسان والإمكانات والظروف الداخلية والخارجية على قدر من التحولات يفترض قراءته بعمق، ولذلك فإن الزمن أصبح أصعب من السابق، لكن ما تعلمناه من تحديات الأمس يمنحنا فرصة أن نرى ما يواجهنا اليوم بخبرة ونضج، فالتأسيس السليم يقود إلى مواصلة هادئة للبناء، لكن المراجعة هي البند الغائب في معركتنا مع الحاضر، لأن «الاجتهادات» الارتجالية ما زالت قائمة في بعض المواقع التنموية، دونما وجود وضوح في الرؤية، والدليل أننا بدأنا في إطلاق مشاريع ترفيهية وسياحية خلال السنوات الأخيرة «وعلى استحياء» فيما كان يمكنها أن ترى النور قبل سنوات طويلة.. وهذا على سبيل المثال، فقط!

في «يوليو» من كل عام نستحضر وضع حجر الأساس لبناء الدولة العصرية، ونقارن بين ما قبل عام ١٩٧٠ وما بعدها، مقارنة لم تبق بذلك الزخم لكن المعوّل عليه الآن المقارنة بين العام الماضي وهذا العام، وبين عامنا الحاضر والعام التالي، فالعالم المتسارع والضاج بثورات علمية وتقنية لم يعد ذاته الذي كان قبل عقدين من الزمان (كمثال) ومؤكد أن في جعبة المختبرات والمصانع (والعقول) الكثير ليقدموه في حقول العلم، تماما كما في حقول «الموت» مع تطور الأسلحة وبقية التقنيات القاتلة.. بالجملة.

في الذكرى السابعة والأربعين من زمن النهضة العمانية يجدر أن نقيّم أهمية ما تحقق، ليس على صعيد البناء التنموي، بل ذلك الغرس الإنساني الذي أصبح سمة «وطنية» في التعامل، محليا أو مع القضايا الخارجية، وقد مرّت على المنطقة أحداث جسام خلال ما يقارب من نصف قرن، ربما هو الأخطر على المنطقة، وتداعياته ما تزال تجرف المزيد من الخسائر، فالأتون مشتعل، والزلازل لم تكف بعد، واللاعبون كثر، حيث المصالح والمطامع تتوزع على الخارطة، فاندثرت أوطان وتقسّمت شعوب.. واللعبة مستمرة، لم تتوقف بعد، ولا يبدو أنها ستتوقف في القريب العاجل.

هذا «السلام» الداخلي، و«السلام» مع الخارج متحقق بفضل ثوابت سارت عليها السلطنة منذ ذلك الفجر البعيد، فالإصغاء إلى جميع الأصوات دون إلغاء مدخل مهم لفهم الواقع، والبناء عليه، وكانت أولى الخطوات من معركة كسب «حرب ظفار» التي كان سلاحها الأبرز التعامل بصوت المواطن فكانت النهاية في ديسمبر من عام ١٩٧٥، و كان العائدون من «الجبهة» مواطنين لهم الحق في السير على خطى وطن يحتاج إلى سواعدهم للبناء، كما دعا أبناءه في الخارج ليأتوا إلى «عمان» في مرحلة مهمة من العمل.. هكذا كان «التعاضد» الوطني بين أبناء البلاد كأول درس في النهضة المعاصرة، وجاءت الدلائل الأخرى لتعمّق هذا الدرس كمفهوم وثقافة، في مواجهة أزمات مختلفة، كان المواطن الرهان الأول لحفظ ما أنجز، والعمل على المزيد من الإنجاز.

وهكذا كانت «روح» التعامل مع القضايا المشتركة مع الأشقاء، أو في الساحات الأخرى حيث «الشقاق» لا يجابه إلا «بالحوار» وعدم التصعيد بما أوجد حالة من «السلام» الداخلي لدى الإنسان العماني، يعرفه بها زائر البلاد وهو يتعامل معه، ويعرفها به مواطنو الدول الأخرى حينما يحلّ المواطن العماني زائرا.

في الذكرى السابعة والأربعين لذلك الفجر الجديد من يوليو يتوجب علينا أن نستعيد «إيجابيات» المرحلة، ولكن علينا أيضا ممارسة النقد الذاتي لمسار لم تكن الاجتهادات جميعها فيه على درجة مستحقة من النجاح، كما يليق باسم عمان، وكما يجدر بالرؤية التي أرادها سلطان البلاد لهذا المسار.

النقد الذاتي تمثل في حوار داخلي يطرح أبجديات المرحلة بكل ما فيها من تطلعات وطموحات وأفكار.. ما تحقق، وما عجزنا عن تحقيقه، ما كان سببه الإمكانات المادية، وما كانت أسبابه «الترهلات» في الإمكانات البشرية..

لماذا تأخرنا في مواقع معينة فيما حققنا تقدما في مجالات أخرى؟

والأهم: إلى أين سائرون؟

تلك هي النقطة الأهم.

من خلال خارطة الطريق التي سلكناها سابقا علينا تبيّن موقعنا من الإعراب، ومدى ملاءمة الخارطة ليكون لنا قصب السبق بين الأمم الأخرى، حتى لا نشعر بالرضا على ما تحقق، ونقنع بالخطاب «المتداول» حيث «الإنجازات» العظيمة بينما هناك ما علينا وضعه على المحك: أين نحن؟ وماذا ينتظرنا؟

ليس من باب «التشكيك» في المسيرة، ولكن لتصحيح المسار، هذا المسار الذي يعمل على بنائه جيل ليس مرتبطا بفكرة «الولاء» كما كانت لدى أجيال سبقته، ولا مفهوم «الوطنية» لديه بذات الرؤية، جيل تقني له محددات مختلفة، لا يمكنك أن تقنعه بالفرح لأن قرية دخلتها الكهرباء، وهو يجد أن خدمة الإنترنت في بلاده لا تساوي شيئا أمام ما يعرفه عن إمكانات الآخرين، فارق بين من اعتاد على «شكر الحكومة الرشيدة» على بناء المدارس والمستشفيات، وبين من يضع مبضع الجرّاح على كل شيء، لأنه لم يولد في بيت سعفي ينتظر وصول المصباح الكهربائي، وإنما ولد في عصر محسوب على العلم والمعرفة، ومتطلبات هذه صعبة كما هي صعوبة مواجهة إشكالاتها.

جيل يحتاج إلى «العلم والمعرفة» في وقت تتقاذفه فيه مخاطر جمّة، انحراف في السلوكيات والفكر وما شابه ذلك، ومع ذلك فإن هذا الجيل هو من يفرض «النقد الذاتي» كضرورة لا مناص عنها، لأنه يمثل أكثر من ثلثي عدد السكان، والتعامل معه ليس بالمدارس والكليات والوظائف، ولا بالتفكير نيابة عنهم.. بل بوضعهم على الطريق كراشدين عليهم تبيّن «خارطتهم».. لأنهم «الأخبر» بعالمهم، ولكن كيف يمكنهم ذلك، هنا تكمن كلمة «التمكين».. فهل نحن سائرون عليها حقا؟!

في الذكرى السابعة والأربعين للنهضة العمانية المعاصرة هناك كثير ما يمكن البناء عليه من إنجازات متحققة، وهناك ما ينتظرنا لبنائه مما تستحقه عمان منّا.. فكل «يوليو» وعمان في «سلام» تصنعه تنمية داخلية، ورؤية خارجية.